تعقيب

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب "قصة الفلسفة" لمؤلفه «ول ديورانت»، وهو كتاب تناول حياة أشهر الفلاسفة على مر التاريخ وأهم ما يميز أعمالهم وفلسفاتهم وناقشها بطريقة موضوعية. ورغم ما يوجه للكتاب من نقد يركز في كثير من الأحيان على وجود قفزة زمنية كبيرة (لاحظ الفارق الزمني الكبير بين أرسطو الذي تناول الكتاب أعماله وحياته في الفصل الثاني وفرانسيس بيكون الذي تناول الكتاب أعماله وحياته في الفصل الثالث) إلا أنني أرى أن واقع الحال فرض ذلك على المؤلف، فالفترة الزمنية الفاصلة بين الفيلسوفين لم يكن بها فلاسفة من ذوي الأسماء الأشهر في عالم الفلسفة.

كما أود أن أوضح أن من صفات الكتابة في مجال الفلسفة التي تناولها هذا الكتاب وأشار إليها المؤلف في أكثر من موضع "الغموض وعدم الوضوح". وهي صفات ذكرها المؤلف عند وصف كتابات ومؤلفات وآراء أكثر من فيلسوف ممن وردوا في هذا الكتاب. وقد حاولت جاهدًا التوضيح والتبسيط قدر الإمكان حتى لا يصاب القارئ بأي ملل، إلا أن الأمر لا يخلو من ترك بعض الفقرات المبهمة أو غير الواضحة (قليلة جدًا) كما هي لتأكيد أن ذلك حدث من بعض الفلاسفة بالفعل.

ولا يمكنني أن أقول إني اختصرت الكتاب أو لخصته، فكل موضوعات الكتاب الأصلي وكل ما ذكره المؤلف موجود في هذه الترجمة، إلا أنه كان من الأفضل لهذه الترجمة العربية أن أقرأ بعض

obeikan.com

الفقرات باللغة الإنجليزية وأعبر عما جاء فيها في فقرة واحدة أو فقرتين حتى يتضح الترابط بين ما فيها من أفكار ولا يفقد القارئ التركيز. على أن ذلك لم يحدث في كثير من موضوعات الكتاب، بل في قليل منها فقط.

وميزة هذا الكتاب أنه لم يركز على شرح الفلسفات التي يمثلها الفلاسفة شرحًا مطولاً ومفصلاً، فهو كتاب لا يخاطب المتخصصين في الفلسفة فقط بل يستهدف عامة القراء أيضًا، لكنه ركز على تعريف القارئ بالفيلسوف وحياته وعصره والأحداث السياسية والاقتصادية التي عايشها وكذلك الحروب والأزمات التي وقعت في عصورهم. كما تناول المؤلف جوانب من الأحداث التي وقعت في حياة الفيلسوف بالتفصيل، وكذلك رأي الفيلسوف وموقفه من القضايا الهامة التي عاصرها وهذا من وجهة نظري أهم ما في الكتاب. فهو ليس كتابًا لدراسة الفلسفة ولكنه كتاب عن الفلاسفة وفلسفاتهم.

على أني أبرأ إلى الله تعالى من كل ما ورد على ألسنة بعض الفلاسفة المذكورين في الكتاب من إنكار لوجود الله أو الدعوة إلى تعدد الآلهة أو الإلحاد. أو التناقض البشع من بعضهم بالدعوة إلى إنكار وجود الله والحديث عن الإيمان والعقيدة في نفس الوقت !!! وما ذكرت هذا الكلام إلا لأنهم قالوه ولا يمكنني تغييره، وقد تركته حتى يعتبر أولو الألباب. أما أنا فلا أرى فيه إلا كفر وهرطقة. وفي هذا الموضوع أرد عليهم جميعًا بقصة وردت في كتاب من مؤلفاتي ذكرت فيه بعض الطرائف العربية أختصرها فيما يلي:

"كان أهل إحدى القرى مبتلين بكافر يدعو إلى الإلحاد وعدم الإيمان بأي إله (والعياذ بالله) وقد ضاق به أهل القرية، فانبرى له أحد مشايخها وتواعدا على لقاء للحوار أمام جمع من أهل القرية للحوار. وجاء اليوم الموعود وتأخر الشيخ عن الحضور، وتهلل وجه الكافر وهم أن يغادر المكان بعد طول انتظار. فقد اعتبر غياب الشيخ انتصارًا، إلا أن الشيخ جاء يمشي على مهل.

اعتذر الشيخ لأهل القرية عن التأخير، فرد الرجل الملحد سائلاً عن السبب. فقال الشيخ: كان علي أن أعبر النهر، لكني انتظرت طويلاً بسبب تعطل القوارب، وفجأة جاءت بعض قطع من الأخشاب وتراصت أمامي مكونة مركبًا، ركبت عليها وجئت. ضحك الرجل وأخذ يشير إلى الناس ويقول: "هل هذا كبيركم ... إنه يهذي." فرد الشيخ: "أليس من المعقول ما قلته، ألا تصدق أن الخشب كون مركبًا جئت به دون أن يصنعه صانع." قال الرجل: "لا ... بالطبع." فرد الشيخ: "فما قولك في نفسك وأنت تقول إن هذا الكون الكبير بغير إله يديره. فبهت الذي كفر ولم ينطق بكلمة. فواصل الشيخ كلامه واستشهد بآيات من القرآن الكريم أنهى بها اللقاء فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

(سورة القصص).

وبمناسبة الحديث عن الكفر والهرطقة، ورد في هذا الكتاب فقرة عن حكم الكنيسة على الفيلسوف اليهودي «سبينوزا» بالحرمان واتهموه بالهرطقة. وقد اضطر إلى تغيير المدينة التي يعيش فيها وذهب ليعيش منزويًا في مدينة أخرى. وقد ورد في ترجمتي لكتاب

«اليهودي العالمي» (تأليف أدولف هتلر) إلى اللغة العربية الصادر عن دار ابن سينا في القاهرة وصف لمشاهد جلسة حرمان «سبينوزا» أقتبس منه ما يلي:

«وجاء يوم العزل، وجاء عدد كبير من المشاهدين لحضور هذه المراسم الرهيبة. وبدأت المراسم بإشعال عدد من الشموع السوداء في صمت، ثم فُتحت خزانة حفظ شريعة موسى. الآن أصبح كبير الحاخامات -الصديق والأستاذ سابقًا- عدوًا لدودًا. وقف وهو يتألم لكن في كبرياء، وركز الناس عيونهم المتلهفة عليه. وهناك في الأعلى، نهض المنشد وتلا بصوت عال حزين بيان العزل، وفي الجهة المقابلة اختلطت أصوات الأبواق المتداخلة. والآن قلبت الشموع السوداء وتُركت لتذوب قطرة قطرة داخل أنبوب ضخم مملوء بالدم.

ثم جاء المعزول. وقال القارئ: «طبقًا لحكم الملائكة وحكم القديسين، فإننا نحرم ونعزل «أسبينوزا» وذلك بموافقة تامة من الحكماء وفي حضور الكتاب المقدس بما فيه من ٦١٣ وصية مكتوبة هنا. فإننا نعلن أنه ملعون بالنهار وملعون بالليل. ملعون في نومه وملعون في يقظته. ملعون إذا جاء أو راح. لن يغفر له الرب، وسيصب غضبه عليه. وسينال كل اللعنات. سيدمر الرب اسمه ويمحقه لكل ما فعله في اليهود. ونحذركم جميعًا من التحدث معه سواء شفهيًا أو كتابة، ولا تقدموا له أي عون، ولا يجب أن يجمعه سقف واحد مع أي منا.

وبمجرد نطق تلك الكلمات المتفجرة، غمست كل أضواء الشموع فجأة في الدماء. وصرخ الجميع في رعب. وصاحوا جميعًا في الظلام مرددين: آمين .. آمين.»

وفي موضع آخر في كتاب "قصة الفلسفة" الذي بين يديك الآن، أساء أحد الفلاسفة المذكورين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. إنه "فولتير" وقد ألف المسرحية باسم "محمد: التعصب". وكان فيها الكثير من الافتراءات والاتهامات الباطلة. والغريب أنني قرأت أبحاثًا ومقالات عن هذا الموضوع تقول إن فولتير كان يوجه هذه الاتهامات إلى رجال الكنيسة في عصره. وأنه لجأ إلى استخدام اسم علم كبير من أعلام الحضارة الشرقية حتى يتجنب عقاب الكنيسة، إلا أن الكنيسة استدعته وحاكمته على عرض تلك المسرحية وأوقفت عرضها، وفيما يلي موجز لإحدى المقالات التي تناولت هذا الموضوع.

"مسرحية محمد لفولتير: هي مسرحية من خمسة فصول كتبها الكاتب المسرحي والفيلسوف الفرنسي فولتير عام ١٧٣٦م، وعرضت للمرة الأولى في مدينة ليل الفرنسية في ٢٥ أبريل ١٧٤١م.

تهاجم المسرحية الدين الإسلامي في شخص نبيه، ويظهر ذلك في وصف فولتير للمسرحية في رسالة له إلى البابا بندكت الرابع عشر بتاريخ ١٧ أغسطس ١٧٤٥م. بأنها: "كُتبت لنقد مؤسس طائفة دينية كاذبة وبربرية"، ويظهر النبي في المسرحية وهو يقتل معارضيه.

يقول المؤرخ الفرنسي المختص بدراسة الفاشية بيير ميليز: "وكعادة فولتير المتكررة في ما كتبه لم يكن الإسلام هو المقصود حقيقة بقصة المسرحية ولكن المسيحية، وكان الهدف منها إدانة اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية وجرائمها المرتكبة باسم المسيح."

وقد صرح فولتير شخصيًا بهذا في رسالة كتبها عام ١٧٤٢م بصيغة غير واضحة، فقال: "أردت من المسرحية أن أظهر الأبعاد المقيتة للفاشية التي يمكن لمدعٍ أن يزرعها في العقول الضعيفة."

وفي رسالة تالية أكثر وضوحاً وفي نفس العام كتب فولتير أن قصة المسرحية كان الهدف منها الإشارة إلى الراهب المسيحي جاك كليمان الذي قتل هنري الثالث في عام ١٥٨٩م. ولم تنشر هذه الرسالة التي كتبت في سبتمبر عام ١٧٤٢م حتى عام ١٨٥٦.

كما شرح فولتير رأيه الحقيقي في مقال كتبه ١٧٤٨م عن القرآن بعد صدور المسرحية، حيث قال: "إن كان كتابه غير ملائم لزماننا فقد أدى خيرًا كثيرًا لمعاصريه، وتأثير دينه كان أفضل من ذلك، وعلينا الاعتراف بأنه أنهى الوثنية في قارة آسيا كلها.

وهناك من يرى أن ما يبرهن على أن المسرحية تنتقد سياسيين معاصرين في زمن فولتير بطريقة رمزية هو النتيجة التي أدت إليها، حيث تمت محاكمة فولتير من السلطات الكنسية وتم منع المسرحية. ومسألة أن المسرحية تستهدف حدثًا محددًا يدين الكنيسة المسيحية أمر معروف في الثقافة الفرنسية وقليل الانتشار في الدول الناطقة بالإنجليزية، حيث يعتقد البعض من منظور سطحيّ أن المسرحية ناقدة للإسلام.

وقد صرح فولتير عن رأيه الحقيقي في محمد (صلى الله عليه وسلم) في أواخر حياته في عام ١٧٧٢م، فقال:

"إن دينه حكيم ومستقيم وعفيف وإنساني، حكيم لأنه لم يربط الإله بفكرة غبية ولا يحوي ألغازاً، ومستقيم لأنه حرم القمار والخمر والكحول وأمر بالصلاة خمس مرات في اليوم، وعفيف لأنه حدد عدد الزوجات بأربع زوجات فقط، وقبله كان الزواج بلا حدود ويشهد على

ذلك قصور أمراء الشرق. وهو دين إنساني لأنه يأمر بالزكاة قبل الحج إلى مكة، إضافة إلى صفات الصدق وتحمل الآخر".

***

أما ملاحظاتي الأخيرة عن الكتاب فكانت على المؤلف نفسه (ول ديورنت). فهو ينتقل من السرد على لسان فيلسوف ما إلى التعليق عليه دون أن يوضح ذلك إلا في نهاية الفقرة أو بعد عدة فقرات، مما قد يربك القارئ. وقد تلافيت هذا في الترجمة العربية التي بين يديك الآن.

كما أن "ديورانت" لم يتبع أسلوبًا واحدًا في الحديث عن الفلاسفة، فجاءت العناوين الجانبية للفصول مختلفة مع كل فيلسوف، فهو يبدأ الحديث عن نشأة فيلسوف ما، وعند تناول فيلسوف آخر يبدأ بأعماله، ومع ثالث يبدأ بالظروف السياسية والاجتماعية التي نشأ فيها، وفي مثال آخر يتحدث أولاً عن فلاسفة آخرين ويسهب في الحديث عنهم قبل أن يبدأ في الحديث عن الفيلسوف المخصص له الفصل بعد بداية الفصل بصفحات عديدة، مثلما فعل في الفصل الثامن. وهذا واضح من أول فصل حيث عنونه بأفلاطون وبدأ الحديث عن المجتمع اليوناني الذي نشأ فيه أفلاطون، ثم انتقل للحديث عن سقراط بالتفصيل منتهيًا بمشهد شربه للسم تنفيذًا لحكم صادر عليه. ثم بدأ الحديث بعد ذلك عن أفلاطون (أحد تلاميذ سقراط)، وهذا أمر مجهد للقارئ ويحتاج إلى تركيز أكبر منه.

إلا أن هناك من يرى أن لهذا الأسلوب في العرض ميزة فريدة، حيث يجعل القارئ متنبهًا دائمًا ويزيد من تركيزه. كما أنه أسلوب مميز يبتعد بالقارئ عن اتباع الطريقة النمطية الثابتة مع كل فيلسوف، فهي تشبه طريقة الكتب المدرسية القديمة المملة.

وقد أضفت تاريخ ميلاد كل فيلسوف وتاريخ وفاته بجانب اسمه في الفهرس للتسهيل على القارئ، وذلك لأن الكتاب يذكر تاريخ ميلاد الفيلسوف في بداية الحديث عنه، ثم يذكر تاريخ وفاته في موضع آخر بعيدًا عنه، قد يكون في نهاية الفصل، أو في بدايته أو في وسط موضوعات الفصل. حيث لم يتبع المؤلف أسلوبًا واحدًا ثابتًا لعرض مادة الكتاب كما ذكرت من قبل.

وأخيرًا ... هذا هو كتاب "قصة الفلسفة" باللغة العربية أقدمه للقارئ العربي في كل مكان وأتمنى أن يجد فيه ما يفيده.

أكرم مؤمن

٠١٢٠٧٧٠٠٠٢٢

قصة الفلسفة

obeikan.com